غربة روح

الكاتبة: رانيا صلاح

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 10557 / 2020

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 119 - 2

دار الزيات للنشر والتوزيع :**Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم

01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / **49351**

غربة روح

قصص قصيرة

الكاتبة

رانيا صلاح

مقدمة

وأصبحَت تخشى أن تُحِب، أن تحيا، أن تثق أن هناك ما يسمى بالحب.. تخاطب من بالمِرآة: **من أنتِ؟! تُشبهُني ملامحك! لم ترَ إلا سماءً** تباهتت زرقتها، لم يكتمل قمرها، يتباطأ قلبها وكأنه يهاب المُضي بين السحاب.

تخشى الظهور للعالم، تشعر أنه ليس بعالِمِها، وكأنها طفلة وحيدة شاردة لم تجد بين أصدقائها ترحيبًا بها فاكتفت بالنظر إليهم من زاوية بعيدة، خاوية جدرانها، حزينة كحزن قلبها الذي فقد بخوفه طعم الحياة.. قلب بارد مغطى بثلوج من ألم يفتقد لدفء الشمس، عيون تحجرت بها الكثير من الدموع التي تحتضن مشاعر تحتضر لم ولن يدري بها أحد..

غربة بروح مرهقة ينقصها أمان..

وجفون يغلبها النعاس رافضة أن يوقظها واقعها.

عقل حائر وقلب ينزف وروح تحتضر..

فلعل قلبها لم يفكر جيدًا واشتدت غربته وبإرادته استكان لِقِلة حيلته..

عجز وخيم أعلنت به روحها خضوعها لنومٍ تُزينة أحلامٍ جميلة تحيا ما تبقى من رفات حياتها على أمل أن يتحقق يومًا.

لم تجد غير حروفِها طريقًا لشغفها ووطنًا لغربتها، فكان القلم دائمًا وأبدًا رفيقها.

رانيا صلاح

❋ ❋ ❋

إهداء

روحٌ بجانبي أنتَ، والآن رَحَلَت عني.. أدعو الله أن يجمعني بها في جنته.

إهداء لمن كان سببًا في وصولي ولما أنا عليه الآن.

إهداء إلى **أخي** رحمه الله.

إهداء لكل من علمني حرفًا، لكل من كان سندًا لي، لكل من كان سببًا في التعرف على ذاتي وحُبِّها.

إهداء لرجل عظيم وامرأة أجمل وأبسط، إهداء للعظيم **أبي** وللجميلة **أمي**.

إهداء لمن أعيش من أجله وفقط.. إلى من تقاوم روحي السقوط من أجل رفعته.

إلى من أحاول جاهدة أن يكون فخورًا بأمه.. إهداء إلى **ابني**.

❋ ❋ ❋

تنهيدة حنين

نظرت لسمائِها الصافية فاتسعت روحها حجم السماء، ومدت ذراعيها كأنها تَحتضن بحرها وتحلق مع الطيور، حيث جلسا على صخورهما أمام البحر كعادتهما ليقضيا يومًا شتويًّا سويًّا، لا يوجد به دفء سوى دفء حُبهما.

ثم انتبهت إليه لتجده يرمقها بنظراته وكأنه يحتضنها في حنان.. لتخفض عينيها بابتسامة رقيقة خجلًا منه.

كان عشقهما بلا أمل، لكن قلبيهما يذوبان عشقًا عجزا عن إيقافه.

فوحده من كانت تشعر معه فريدة أنها تمتلك الكون، أحبَّت حياتها به.. ورأت كل جميل بها في مقلتيه.. وحده من يفهمها، وحده من امتلك قلبها وروحها، كانت له أيضًا روحًا تُكمِّل روحه وتُدفئها.. وبغياب أحدهما عن الآخر غابت الروح، لتصبح أجسادًا فارغة بلا هوية.

رأى انعكاس الشمس بعينيها حينما عانقت البحر واختبأت بين طياته بضوء يُنير حياته ويرشده.

وبنظرة منها لدقات ساعتها في محاولة جاهدة للهَرَب بارتباك من حنان عينيه واحتضانه بها لروحها.. انتبهت أنها الساعة التاسعة مساءً،

وبصوت متحشرج امتزج به الحب والحزن **قالت**: لقد تأخر الوقت لا بد أن أذهب الآن.

نهضت مسرعة كسندريلا مودعة حبيبها، لا تعلم إن كانت ستجتمع به ثانية! لم تكن تعلم أن حياتها ستفقد بريقها.. وستفتقد حضن يديه الذي كان يتسع كونها رغم ضيقه.

لم يستطع حبيبها أن يجعل حبه كاملًا؛ فقد فرقهما الدين والعُرف الذي كان أقوى من حبهما ذي الخمس سنوات دون علم أحد به.

لكن صوت العقل طغى واختفى حبيب أيامها من حياتها وأخذ كيانها معه..

***

روحٌ تمزقت بالفراق، ضلَّت طريقها بين أمواج بحرها فغرقت..

سنوات مضت، رحلت فريدة لبلد أوروبية كي تكمل دراستها، والتحقت بوظيفة مرموقة، حيث يعمل والدها سفيرًا للأمم المتحدة بها، فضلت الهروب، ظنًّا منها أنها ستنفض عباءة حب حياتها عنها.

لكن حبها ظل باقيًا. تحيا على ما تبقى منه في خيالها، تفتقد روحه بجانبها، عطره، أنفاسه التي كانت تحتويها برقة وقوة.. لتصنع سعادتها.

استدار فادي على صوت ابنه حاملًا له كوب الماء الذي طلبه منه.. فعاد لواقعه مرة أخرى، وترك الكوب جانبًا واحتضن ابنه في ألم.. وظل بقناع السعادة الدائم الذي يتقن ارتداءه أمام الجميع.

وعيد حب جديد يأتي غير مكتمل، عيدها يَنقصُه حُب، لكنه سيظل عيدًا لقلوب بعض العاشقين.. تخرج وحيدة لترى المحبين يجمعهم بحر وورود بلون قلوبهم، ترى عالمًا قد كساه لون واحد كلوعتهم بأشواقهم.. بحنين لا ينطفئ، ووفاء يُغلِّف هذا الحب حتى وإن كان بخيالِها، يشتاق فؤادها إليه..

تنظر لبحرِها وتُلقي تنهيدة تحمل الكثير بين أمواجه وكأنها تحمل بعض أمنياتها وبعض الذكريات.

تتذكره فترى وجهه المبتسم بين طيات أمواج بحرها العالية لتحمل له دعوة بظهر الغيب، متمنية أن يشاركها وحدتها فتُطلعه على أسرار وأعماق حبيبها الوحيد.. لعل الله يجمعهما يومًا.

❋ ❋ ❋

ملاك الله

كانت الساعة قد وصلت العاشرة مساءً، حينما نادى رامز أخته كي تؤنِس وحدته.. كان يُناديها (ماما) أحيانًا وباسمها أحايين أخرى بِنطق بِضع حروف من اسمها، ليس كاملًا.

تُحَضِّر له وجبة العشاء بكل ما يُحِب من طعام، وتُسرع له وتجلس بجانبه على فِراشه تُطعمه وتتبادل يداها على فمه وقبلاتها على وجنتيه.. ليحظى بلقمة يعقبها قبلة وهكذا.

ثم تذهب تاركة قُبلة على جَبينه وأخرى على يديه وتحنو بيديها على كتفه مودعة إياه، لتغفو عيناه حتى شروق شمسه.

وذات يوم كانت بدايته موجعة.. استيقظت مليكة ووالدتها على أنين رامز يصرخ من ألم ضرسه.. وظلت والدتها تبكي دون حراك.. فرامز نقطة ضعفها، صغيرها ذو التوحد، أدرك كلاهما أن من الصعب أن يكشف عليه طبيب لصعوبة التعامل معه.

فكان على مليكة ووالدتها اصطحابه لمستشفى لإجراء عملية لخلع ضرسه، وكأنها عملية لخلع روح والدته ومليكة معًا.

اصطحبهما أحمد ابن عم مليكة لرحلة عذاب إلى مستشفى قريب من منزلهم. بعيد بُعد السماء عن الأرض جهدًا عليهم. وظل أحمد سندًا لهم حتى اكتمل شفاء رامز وترك المستشفى ليأوي إلى بيته من جديد.

كانت مليكة ووالدتها تستندان عليه كأنه عُكاز لهما بعد سفر الأب إلى الخارج لكسب قوته وتوفير حياة كريمة لهما. شهر واحد بالسنة يجتمعون به وتجمعهم وِحدة بباقي شهور السنة كاملة.

هكذا دامت حياتهم بسيطة رغم صعوبتها ما بين شِفاء ومرض، سعادة وحزن كانت الأم فيها قوتها، أبًا وأمًّا معًا، كأنها بمعركة ليس من حق المقاتل فيها أن يلتقط أنفاسه.

لم تتوقع مليكة أن دُعاءها استجيب من الله بهذه السرعة، لم تَكن تعلم أنه دِفؤه الأخير لها حين ضمها إليه، ورَبت بيدِه على ظَهرِها كأنه يودعُها، رغم مرضه الذي كان يعاني منه عشية وفاته.. فقد كان رامز ملاك الله، منحهم الله إياه ليكون نور البيت ونور حياتهم.

كان أخوها الأصغر بخمس سنوات.. (رومي) كما كان يلقبه الجميع من ذوي الاحتياجات الخاصة، كان يتميز بحُبِّه من كل من حوله. يأتون ليأخذوا بركته كما كانوا يقولون.

كان جميل الوجه والقلب، براءته لم ترَها مليكة من قبل، بداخله حنان نقله لها دون وعي منه.. كلماته البسيطة جدًّا التي لا تتعدى حروفًا ضئيلة كانت بمثابة مُرشد لها في كل شيء.

اعتادت الاختباء بحضنه حين تقسو عليها الحياة، وتشكو وتتحدث طويلًا ثم تصمت على صدره وهو يبتسم، وتسأله أن يدعي لها فينطق **(يارب)**.

وكأنه يفهمها ويُترجم ما بها ويتحسس جرحها الذي ينزف على صدره وبين يديه. كان يُهديها ابتسامته دائمًا وروحه لتهدأ وتُعاود حياتها الصعبة من جديد.

أسبوعان قبل وفاته وهو مريض ولم تقم الأدوية بدورها هذه المرة.. كانت تشعر مليكة أن رحيله قد اقترب، وكانت تُكذِّب نفسها كل يوم وكل لحظة، نافية إحساسها، طالبة من الله عز وجل شفاءه. كانت تتألم لألمه، عاجزة عن فعل أي شيء يقلل من ألمه، سوى مسح دموعه التي أصبحت مستمرة بآخر شهور بدون سبب، وضمه لصدرها ومحاولة لم تنجح كثيرًا في جعله يبتسم.. كان يعتصرها الوجع على وجعه يومًا بعد يوم.. وعجز الجميع عن مساعدته.. وجدت نفسها تتضرع إلى الله أن

يريحه من عذابه، اللهم شفاؤك أو راحتك لروح جميلة تتعذب.. داعية الله أن يعزه لا يذله أبدًا ولو بإحساس بسيط.. كانت تتخيل وجهه وهو يبكي، بُكاؤه كان يُمزق روحها بشراسه وبطء.. مما جعل الوجع أضخم.

ثم أتى صباح يوم وفاته.. هدوء مفرط، نظرات غريبة وكأنه يودعها ويرى ما لا تراه هي في رهبة، وجه ملائكي أبيض على غير عادته جعلها تفرح بشفائه لوهلة..كانت تجهل أنه لحظات ويتركها، تاركًا لها حزنًا وغصة بقلبها، تحاول أن تتقبل مرارتها كتقبل مرارة الدواء لمرض لعين.

فودعت عيناه مليكة وحَضَن أمه وترك جسده على سريره ليرتطم به بروح ذاهبة لخالقها راضية مرضيَّة..

كانت أخته بجانبه، آخر نظرة لها، آخر ضحكة لها. أغلقت عينيه والدموع ملأت عينيها في هدوء وقَبَّلت جَبينه ويد والدتها.. تفهمت أمر ربها، وأخذت تقرأ بجانبه ليلة كاملة جزءًا كبيرًا من قرآن ربها، حتى صباح يوم الجمعة المبارك، حيث ذهب لمثواه الأخير.

رحم الله الجميل وربط على قلوب كل من أحبه.

❋ ❋ ❋

لعبة القدر

لم يكن صيفًا تقليديًّا بحياتها، فقد نضجت ولم تعد طفلة صغيرة جميلة؛ بل أصبحت أنثى مكتملة الجمال أكملت عامها العشرين، على شاطئ البحر حيث كان المصيف المعتاد لَملك وعائلتها الدافئة، غادروا صباح يوم مشرقة شمسه تدفئ قلوبهم سعادة، واستقروا بإحدى الشقق الواسعة المطلة على البحر مباشرة بمنطقة المعمورة بالإسكندرية.

ملك ووالداها وصديقة عمرها شهد، فكانت بمثابة أخت لم تلدها أمها وصديقة طفولتها، ملازمة لها بكل حياتها، حيث إنها الابنة الوحيدة المدللة لوالديها.

لم تكن نَظَراته عابرة ولم تمر مرور الكرام بروحها، حينما تلاقت أعينهما صباح اليوم التالي.

حيث استيقظت الابنة المدللة قبل ابنة خالتها، تتطلع لهواء الصباح من شرفتها بكل نشاط، منتظرة بزوغ شمسها لتحتضن بحرها بين ذراعيها.

لفت انتباهها بنظراته إليها حين عَبر أمام شُرفتها بابتسامة تُحيي جمالها الأخاذ، ليرسم على وجهها ابتسامة ممزوجة بخجل ما زادتها إلا سحرًا أسَر روحه.

استيقظت شهد لتجدها شاردة باسمة الوجه، تنظر للفراغ بجانبها فتعجبت!

تملصت مَلك من إجابتها وأخبرتها أنها مرهقة.

وسطعت شمسها لتعلن عن بدء يوم جديد على موعد فيه مع بحرها الجميل؛ لتأخذ أمواجه بأحضانها.. وتَقابل العاشقان وامتزجت أنفاسهم حتى ارتوت ملك منه، حيث كان بحرها، عشيقها الوحيد رغم عدم إجادتها السباحة فيه، لكنه كان بمثابة ملاذ لها.

كم أرى حبك للبحر بقدر جمالك، التفتت ملك على جملته لتجده يجلس بجانبها على الرمال الذهبية حيث كانت تتأمل سماءها.

تناولا الحديث، كان محمود شابًّا وسيمًا يكبرها بعامين فقط، مفتول العضلات، نظرته جذابة حادة، لم يبذل جهدًا كبيرًا ليتقرب لروحها التي كانت تُحيطُها براءة لم يرها من قبل. وعلِمت أنه جارها ولفتت انتباهه

منذ حضورها وكان يأمل الحديث معها، لم يتبادلا الحديث فقط؛ بل تبادلا الأرواح، حيث طابت حياتهما بإيجاد كل منهما الآخر، ونشأ عشق من نوع خاص بين قلبين اشتعلت ناره بينهما.

وانتهى مسرعًا مصيفهما (**الوقت الحلو بيعدي بسرعة**).. حيث عادا لحياتهما وودعا بَحرَهما على وعد منهما أن يلتقيا به الصيف المقبل.

تعاهدا على حُبهما وأن يجمعهما بيت واحد، أركانه عشقهما الذي كان يرتوي منهما كل يوم لتثمر أوراقه زهورًا طيبة الأثر.

وانتهى كل منهما من دراسته، والتحق محمود بوظيفة لا بأس بها وها قد حان الوقت ليتقدم لحبيبته الوفية ليصنعا بيتهما الذي طالما حَلِما به.

لكن تأتي الرياح دائمًا بما لا تشتهي السفن، حكم الأب بإعدام هذا الأمل برفضه هذه الزيجة متحججًا باختلاف المستوى الاجتماعي بين الأسرتين، حيث كانت ملك من أسرة أرستقراطية من الطبقة العليا، بينما محمود من أسرة بسيطة مكافحة، لم تكن بالمستوى المرجو لوالدها.. حاولت الرقيقة باستماتة أن تؤثر على والدها، محاولات لم تؤل إلا بالفشل، ولم تخسر فيها سوى ذاتها. رضخت ملك في نهايتها لرفض

والدها ووالدتها.. غائبة عنها روحها، تحيا في شرود. حياتها من تتحكم بها لأيام لا تعلم نهايتها. أصبحت دُمية فاقدة للروح، ذهب جمالها وأصبحت كوردة تساقطت أوراقها لتصبح عارية تقصف بها الرياح بقسوة، إلى أن جاء عريسها المناسب من وجهة نظر والدها لم تعلم عنه سوى أنه المهندس ذو الحسب والنسب، من عائلة يفتخر بها.

حياة استمرت وأيام غَدت.. لم تعلم ملك عن محمود بها شيئًا. ماتت دنياها وكأنها زهدت من الدنيا بما تحمله من بشر.

قطعت تواصلها بكل من أحبها حتى صديقتها الحبيبة تزوجت وانتقلت للعيش مع زوجها ببلد عربية، تُهاتفها بمكالمة باردة كل حين.

اكتفت بحياة هادئة مع زوجها، حيث كان رجلًا طيب الخلق حسن السمعة، ورزقت بطفلة جميلة منه كانت لها كل حياتها، أعادت نضرة أوراقها من جديد.

توفي الزوج ونضجت الطفلة لتصبح وردة جميلة بريعان شبابها، بارة بوالدتها الوقورة. لتخبرها بخفقان قلبها عن زميلٍ لها بالجامعة وباستئذانِه لأن يتشرف بمقابلتها مع والديه.

نظرت ملك لابنتها في شرود وضمتها بين ذراعيها متأملة قسمات وجهها التي تكاد تنبض فرحًا، فترى بها عمرها الماضي بأكمله، سنين توجتها كأمٍّ لأجمل الصبايا، وها قد حان الوقت لتصبح أم العروس.

وحُدد ميعاد قدوم العريس ووالديه.

تحجرت بعض الدموع بمقلتي محمود وجرحت أخرى وجنتيه حين أقبلت عليه والدة عروس ابنه الجميلة ليجدها حب عمره الضائع.. ملك.

لتغرق ملك في صمت عميق وغُصة بحلقها منعتها من النطق للحظات.. ثم تمالكت نفسها الضائعة كي لا تحطم قلب ابنتها الوحيدة، ومدت يدها لترحب بمحمود وصديقة عمرها شهد.

❋ ❋ ❋

رحمة بنكهة وطن

جلست تراقب بحذر من خلف حاجز زجاجي رقيق كرقة طيورها التي اعتادت أن تأتي مسرعة إلى شُرفة منزلها.

كانت صباح كل يوم تضع لهم خبزًا وذرة على سور شُرفَتِها، وطبق من فخار تملؤه ماءً كي تستمتع في هدوء بمنظرهم الخلاب وهم يتسارعون بمنقارهم الرقيق ليحصلوا على رزقهم الذي أرسله الله لهم عن طريقها.

وذات يوم وجدت يمامة جميلة بيضاء اللون تسير في حَياء وكأنها عروس بليلة زفافها وخلفها آخر يستَلطِفها وكأنه يُسمِعُها من قصص العاشقين غزلًا..

كانت سعاد تستمع لهديل يمامتها في هدوء وتغريد ما حولها من عصافير كسيمفونية عشق تتمنى أن لا تنتهي.

ظلت هكذا لوقت طويل لم تدركه حتى غفلت عيناها، لا تدري كم من الوقت مر لتصحو على ضجيج صوتُ أبيها مع أُمِها..كانا كثيري الشجار، مما يزعجها دائمًا، داعية الله أن يسود هدوء حياتهما.

صمتت قليلًا.. ثم نظرت لطيورها من جديد وكأنها أرادت أن تخرج من واقعها المعتاد لعالم خيالي تحب تواجدها به.

فوجدت يمامتها مُلقاة أرضًا بشرفتها وبجانبها رفيقها يواسيها.

غاب تفكيرها وأصبح كضباب بليلة باردة في عقلها، فوقفت صامتة ودموع بعينيها تجمدت تراقب ما يحدث من بعيد..

وإذ برفيقها يمسح برأسِه على ريشها ليخفف ما بها من ألم.

وجدته يهرول مسرعًا ليأتي بقطرات ماء بمنقاره الحاد ليضعها بمنقارها فيُسقيها ويروي ظمأ أنينها.

ظلت سعاد في ذهول مؤقت عجزت فيه عن وصف إحساسها، رحمة بنكهة وطن فاقت حدود عقلها وقلبها وروحها، تمنت أن تجدها بوالديها، ثم عادت لصمتها تتساءل إن كانت هذه رحمة الطيور ببعضها فكيف هي رحمة الله عز وجل؟!

❋ ❋ ❋

شبح أخى

استيقظت نجوى على صوت هاتفها فَجرًا في فَزع وكأنها بحِلم مزعج لتَلتقطه قائلة من؟!

ليُجِيبها بصوت باهت بعيد: **أنا أخوكِ افتحي لي!** وبضحكة عالية مرعبة خَتم مكالمته التي تَعلقت بذِهنها وتسَمرت بفِراشها تُحملِق بعَينٍ جاحظة في رعب لغرفتها وتَتلفت يمينًا ويسارًا تبحث عن أخيها المتوفى لعله حيٌّ من جديد.

أمسكت زجاجة مياه بجانب فراشها الواسع حيث كانت وحيدة بعد وفاة والداها وأخوها الوحيد بحادث أليم منذ عام.

ارتشفت منها القليل لتُهدئ أنفاسًا تصَاعدت رَهبًا بِصدرها.. ونهضت لتتوضأ حيث أعلن الفجر عن أذانه.

بخُطى متثاقلة، النوم يُداعب عَينيها تَوضَأت وعند إزالة منشفتها عن وَجهِها وجدته أمامها (**بلحمه وشحمه**).. يرمقها في غضب: **ألم أقل لكِ افتحي لي!!**

انطلقت من جَوفها صرخة اختفى أخوها من أمام نظرها كأنه سراب قبل أن تَكتَمل. لِتضع أصابعها البيضاء على فَمِها في محاولة لكتم صرختها.

تجمدت مقلتيها جاهدة أن تحركها بحثًا عن أخيها الذي تبخر ولم تجد منه شيئًا.

بخطوات أكثر ثُقلًا عادت لِفِراشِها لتَختبئ داخله وظُلَّت تُحدث نفسها: أهذا أخي أم إنني بحلم مزعج؟ استيقظي!! وراحت بسُبات عَميق التَهت به عن صلاة فجرها، لتَستيقظ صباحًا تظن أنه حلم مزعج حَمِدت ربها أنها أفاقت منه.

كانت نجوى ابنة التاسعة والعشرين عامًا تعيش وحيدة بمنزل عائلتها الذي ورثته عنهم، أحبت العزلة داخل ثناياه. كانت كثيرة الشجار مع مديرها حيث تعمل مترجمة بإحدى الشركات الكبرى، وكانت مستقلة بذاتها، قوية إلى حدٍّ ما لكل من يراها. عنيدة إلى حد الجنون. حياتها عمل ونوم وسهر ولهو ليس إلا، ينقصها ما لا تعلمه.

تزوجت مرة واحدة زواجًا انتهى بالانفصال ولم تُنجب لتُكمِل حياتها في وحدة أصبحت صديقتها الصدوقة التي تكتفي بها.

اقتنعت نجوى بحديث أحد أقاربها ببيع بيت العائلة بشبرا لتنتقل بفيلا كبيرة بالتجمع الخامس، وأخذت تبحث عن فِيلا مناسبة لها لتنتقل بحياتها إليها لتبتعد أكثر عن عالمها الذي تقبع به. علها تجد لوحدتها أنيسًا، ولذاتها هدفًا.

وذات صباح لم تفارقه الشمس ولم تزِده إلا دفئًا استيقظت على رنين هاتفها بصديقتها تُحدثها أنها وجدت فيلا مناسبة لها وسوف تأتي لتأخذها لتراها.

تَهلل وجه نجوى وقفزت من مكانِها لتَرتدي ثيابها وإذا به أمامها من جديد بصوت أكثر خشونة جعلها تكاد تفقد توازنها: **ستبيعين بيت أمي؟!**

ابتلعت فَزعها وقالت: أخي! ألم تَمت؟! من أين جئت؟!

رد بلهجة أكثر حدة: **أنا صاحب هذا البيت، إنه بيتي وأنتِ ضيفة فيه..** وأكمل بنبرة تهديد وكأنه يتحداها: إذا تمت هذه البيعة سَيحدث ما لا يحمد عقباه.

واختفى أخوها من أمامها مرة أخرى، تاركًا لها رعبًا ورعشة بجسدها شاردة.. تساقط من يديها ما كانت سوف ترتديه ليرتطم جسدها جالسة بفِراشها يتملكها حزن برهبة كاد أن يفتك بها.

تعللت لصديقتها بإرهاقها على وعد بمُرافقتها غدًا لموقع الفِيلا لمُعاينتها.

لم تتوقع نجوى أن تكون ليلتها بهذا السوء والفزع الذي تملكها، فعجزت أن تفعل أي شيء بيومها عدا النوم والاختباء بفراشها، لعل روحها تشعر بالأمان.

أهان عليكِ سَكن أمي وأبي أن تفرطي به يا نجوى وهو جامعنا؟! إذا أصررتِ على بيعه سأقوم بطرد كل من يسكن به سوانا، ولن أبرح مكاني للأبد. هكذا بدا صوته الحزين جانبها على فِراشها لتُجد جسده نائمًا بجوارها لتقفز فزعًا وليس فرحًا هذه المرة.

وتراه يغمض عينيه ويختفي من جديد.. أهو شبح أخيها أم إنها فقدت عقلها لِتُجن وتصبح أسيرة لمنزل من جماد جدرانه سجنٌ لها.

تعالت صرخاتها كأنها رصاص يخترق أضلُعها فيجرح روحها.

علا صوت بأُذنيها أفاقها، وجدت نفسها أرضًا بين يدي صديقتها وصاحب الفيلا التي أرادت الانتقال إليها جاهدين بإنقاذها بعد أن فقدت وعيها أثناء تفقدها لها.

❋ ❋ ❋

طاقة نور

صباح جميل على ذات العيون العسلية الواسعة ابنة السابعة عشرة، كانت فريدة أجمل بنات قريتها الصغيرة بمحافظة الشرقية.. تتوسط أختين سنًّا لكنها ذات الحظ الأكبر جمالًا.. ريعان شباب يتفتح برائحة ذكية تعم كل حياتها فتغدق عليها بعبيرها وتجذب كل جميل حولها.

ومع شروق شمس أحد الأيام ذهبت فريدة كعادتها لمدرستها **مدرسة البنات الخاصة النموذجية**؛ لتُلاقي معلمها الفاضل.. فيرتوي جهلها منه علمًا، وترتوي روحها عشقًا.. لم تكن تعلم أن قلبها في حبه سَيستكين.

ابتسامة على شفتيها بلون وردتها المفضلة البيضاء تزين وجهًا يُنير بِضوء القمر.

طاقة نور متحركة نجحت بنقلها كلما نظرت إليه، لكل من حولها وكل من تتعامل معه.

كان مُعلمها الجليل معلم اللغة الإنجليزية شابًّا يمتلك من الأخلاق ما يجعله رجُلًا مكتمل الرجولة رغم صِغر سنه، وكانت بروح طفلة نجحت في التسلل لقلبه دون جهد.

لم ينقصه كرسيه المتحرك شيئًا؛ بل زاده احترامًا لكل من رآه.

لم يكن (**مستر أحمد كما كان يُطلق عليه**) الصغير سنًّا، صغيرًا مقامًا بالنسبة لها ولجميع من حوله؛ فكان نافذتها التي تطل منها على عالمها الموسع، تكتسب بعينيه عِلمًا.. وبروحه ترى جمالًا يسرقها لبعيد لا تعلم نهايته، فالصغيرة سنًّا أُغرمت بالكبير مقامًا.

عين تلمع، نبض يُسرع وكأنه يعلن عن حبه في براءة وقوة تخترقان ضلوعها، بضجيج ممزوج بطعم العشق ظل بطل عشقها الصامت تتخيله ليضمها إلى صدره فتسمع نبضات قلبه بحروف اسمها تنطق.

كل ما أدركته شعورها بالسعادة عند رؤيته، أهملت ترجمة ما تشعر به ما دامت سعيدة..

كلما رأته تشعر براحة وكأنه يربت على كتفها ويحتضنها بحنان بين ذراعيه. ترى فيه أباها الحبيب رحمه الله، الذي لم ترَه منذ عامها السابع.

لتصبح أمها أبًا وأمًّا بآن واحد.. عالم صغير هي صغيرته، أبطاله أمها وأختين ومعلم فاضل أصبح حياتها.

ركضت أيامها مسرعة كأنها بسباق لتمر سنين بحلوها ومرها، تخرجت فريدة من كلية التربية قسم اللغة الإنجليزية أيضًا لتصبح معلمة

مثل قدوتها الذي نجح في امتلاك قلبها دون منازع رغم تقدم الكثير لخطبتها، إلا إنها كانت ترفض وتصبر فؤادها بزيارة من حين لآخر لمعلمها الفاضل الذي يخبرها دومًا بعينيه أنه يحبها دون أن ينطق.. وتطمئن على أحواله وتُطَمئِنه على أحوالها..

اجهشت في البكاء وهي ساجدة لربها تدعوه أن يستجيب.. (**اللهم السبيل إليه إن كان خيرًا لي**) وكأنها على موعد مع القدر لتسلم من صلاتها على صوت هاتف منزلها.

لم تجد الأم ما يسعفها من كلمات سوى البيت بيتكم لن يزيده إلا نورًا.

وإذا بوالده الحاج نعمان تاجر القماش الكبير يحدد موعد زيارة مع والدتها ليتقدم ابنه (**مستر أحمد**) لابنتها فريدة.

ساد هدوء وكأنه هدوء ما قبل العاصفة.. وبعد زيارتهما وتقديم واجب الضيافة كاملًا.. ثارت الأم، كيف لقعيد بكرسي متحرك أن يتزوج ابنتها!! خاصة بعد أن تزوجت ابنتاها من زوجين ذَوَي مراكز مرموقة، وسافرا خارج البلاد مع أزواجهما.. فكانت تأمل أن تكون ابنتها الأجمل مثلهما حظًّا. وكيف ستتحمله وكيف ستكون سعيدة معه..

وحكمت بفشل هذه الزيجة من وجهة نظرها، وأغلقت بابًا قد يكون باب سعادة على ابنتها، لكنه بنظرها ما هو غير باب يطل على حزن لبقية حياتها.

على ضجيج صوت هاتف منزلها من جديد استيقظت فريدة لتصمت صوته بعد يوم شاق فتجده حبيب عمرها يقدم تعازيه في وفاة والدتها، حيث علم بوفاتها فور وصوله من سفره مع والده الحاج نعمان ووالدته لإجراء جراحة لوالده بالخارج، وفور عودتهم لم يتردد بالذهاب إليها ليقدم عرضه من جديد بأن تكون رفيقة عمره.. ليتوج حبًّا شهدت عليه براءة قلبيهما وإخلاصها له، فهو الآخر رفض كل عروض الزواج من قِبَل أهله وأصدقائه وكأنه كان يعلم أن الله سيستجيب.

على صوت رضيع يبكي استيقظ أحمد ليجد فريدة قد استسلمت لنومها ورضيعها بين ذراعيها فحمله واحتضن زوجته وغرقوا في سبات عميق. أراد الله أن يتوج حبهما الذي دام في قلوب وفية، لم يلوثها غبار خمسة عشر عامًا.

ليصبح زوجًا لطاقة نوره، وتصبح زوجة لرجلٍ اقترن باسمه الوفاء.

❋ ❋ ❋

أحببت جنيًّا

من شُرفة منزلها المطلة على بحر المنتزه الساحر كانت تجلس ليلى وحيدة كل يوم لَيلًا تنظر إليه في صمت كأنها تسرق وقتًا للاختلاء به بعيدًا عن صخب حياتها المزيفة.. تَخطفُها أمواجه في رحلة بذِهنِها.

تَظل تَتساءل ماذا يوجد داخل ظلام أعماقه؟! تتخيل أن شيئًا مَجهولًا سَيظهَر لها من أسفل ويجذبها لظلمته. مجرد تفكيرها كان يشعرها برهبة ممزوجة بفضول يزيد كل لحظة بروحها.

وإذ به يُلَوِّح لها بيديه من بين الأمواج وكأنه يلفت نظرها إليه.

أصابع بشرية كبياض قطعة ثلج متجمدة بليلة كاحلة الظلام، مستمتعة بوابل من الغَيث ينهمر فوقها تتحسس قطراته، تطفو وتغوص في بحرها الواسع شديد العتمة.

إنها ليلى، ابنة الخامسة والثلاثين، لم ترزق بحياة كما تمنتها أي فتاة بِعمرها.

رغم جمالها الذي يأسر كل من يَراها.

كانت ليلى وحيدة والديها، والدها طبيب القلب المشهور ووالدتها ربة المنزل البسيطة التي وافتها المنية بعد أن فقدت عقلها وأصيبت بالجنون عدة سنوات كانت فيها ليلى بجانبها دائمًا.. لكنها كانت أقرب روحًا لأبيها.

مدللة متملكة عرش قلبه، يُحبها حبًّا جمًّا، يرى بها ما عجز عن رؤيته بأُمِها.. كانت عوضًا له عن ما حيا به من عذاب مع زوجته التي أصابها المرض وأصيبت حياتهم كلها بالجنون. الرفض هو جوابه الدائم لكل من يتقدم لطلب يدها.

غِشاء أعمى عينيه من حبه لها، دون قصد منه حال بينها وبين سعادتها.

تخرجت ليلى من كليه الطب تيَمنًا بأبِيها، لكنها لم تصبح طبيبة إصرارًا من والدها بذلك خوفًا عليها.. إنه الخوف الذي يقتل صاحبه. اكتفى بها الأب عن كل عالمه، لكنه وأد عالمها.

في سِجن من حُب أبِيها وخَوفه عليها عاشت ليلى بشرنقته مستسلمة ظنًّا منها أنها ترضي ربها برضائها له.

بخُطًى مُسرعة نَهضت غير مدركة لوقتها الذي تعدى منتصف الليل، ولا لِطقسها القارس، فوضعت معطفها الفرو ليدفئ ما ظهر منها.

استقلت قارب أبيها وانطلقت لتُنقذ مَن ظَنت أنه يستنجد بها.

لم تكن تعلم أن جِني بحرها المظلم سيروي عطش فضولها وسيصبح عاشقًا لها..!

ظلت تسأل ذاتها من هذا؟ وما الذي أتى به بين الأمواج في هذه الساعة المتأخرة؟! في هذا الطقس السيئ!!!

تساؤلات تكررت رغم خوفها من رُعب سَواد بَحرِها والنَظر داخله وهي تبحث بجنون..

حيث لا ضي سوى شعاع قمرها المكتمل بدرًا، ولا صوت إلا هدير أمواجها.

وإذا بها تسمع نِداء باسمها يأتي من بين أمواج البحر المتضاربة لتبحث عن مصدره.

من أنت؟! أين أنت؟! سأنقذك لا تقلق، مد لي يدك! لم تنتبه من أين علم باسمها!

وإذا به يخرج برأسِه من بين أمواجها ليُعلن عن نفسه لها كاملًا ليس بيده فقط.

وجه أبيض كبياض الثلج يَشع ضوءًا لم ترَ مثله من قبل، شعر كثيف بلون بحرها القاتم، ذراع طويلة تكاد تصل لذراعه الُأخرى بطول قاربها، قويُّ البُنيان بقناع جميل يَحجب ملامح مرعبة، تخيلتها رغم أنها لم ترَها، بجسم طويل يصل لعدة أمتار نهايته ذيل سمكة يحدث صخبًا عند ضربه للماء، كأنه حوت ضخم يبحث عن وجبته الدسمة في محيطه الواسع.

لم يتملكها الرعب؛ بل دهشة وفضول وكأنها كانت بانتظاره.. بانتظار حبيبها الغامض ليَأخُذها إلى أعماق بَحرِها المعتم.

تركت يديها لقبضة يديه لتشعر بدفء يسري بجسدها، كأنها قبضت على جمرة من نار.

وتسلقت ظهره في أمان بذراعيها حول عُنقه.. أغمضت عَينيها لِتذهب في رحلة اشتاقت لها في خيالها.

أعادها عاشقها قبل بزوغ الفجر، وكأنه يدرك مدى فَزعها إن ذَهب عن وجهه ظلام ليلها.

لم يأخذ أبوها حديثها بجدية، حيث أخذت تَسرد ما حدث معها بِليلتها العجيبة، وما رأت بعالم آخر من خلال حبيبها.. استفزت أباها فرحتها التي تتحدث بها مقاطعًا لها ساخرًا: **أعاشقة لجن؟!**

أجابت **نعم**، وكأنها تفتخر!.. في دهشة وشرود منه، تذكر والدتها وجنونها، وحَدَّث ذاته في صمت لقد وَرثت جنونها.

سَآتي لزيارتها اليوم. هكذا حدثه صديقه طبيب والدتها حينما هاتفه أبوها.

وتكررت زيارة طبيبها دون جدوى.

ما نقص سجن والدها لها؛ بل زاد اعتقالًا لحريتها ومنعها من الذهاب إلى حبيبها، فقررت تحرير نفسها واستمعت لندائه لها.

وجاء موعد طبيبها التالي ليجد خطابًا بخط يدها (**لقد أعلنت التمرد وأطلقت سراح حريتي، قتلت أبي لأذهب لعاشقي**)..

وإذا بوالدها جانب خطابها جثة هامدة.

❋ ❋ ❋

ستون دقيقة ألم

كان الصمت يسود المكان عدا صوت المطر المصطدم بزجاج شُرفتها، عينان جاحظتان لم تتذكر حنان لحظتها منذ متى لم يزُرهما طيف النوم.

يداها ترتعشان ظاهرًا في حين أن جسدها كاملًا كان يرتعش، لم تعلم من كان يبكي، أهي دموع عينيها أم قلبها التي سالت بدون تردد في صمت رهيب مُعلنة عن خسارتها معركة الحياة مع حبيب عمرها؟! وبكامل استسلامها.. كانت أثقل ستين دقيقة في حياتها.

حيث جلست على فراشها بصحبة ابنها ذي العامين بين أحضانها، ترى بعينيه زوجها الحبيب، فكانا يتقاسمان نفس الأعين ونفس النظرات، وكان بنفس اسم حبيبها إصرارًا منها بذلك، تيمنًا برفيقها ورفيق دربها يوسف.. ليكون اسم الابن والأب واحدًا.. ترى كل منهما في الآخر.

وشعرت بقلق حين تعدت دقات الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.. فاتصلت برفيقها لِتطمئن أين هو من بين ظلام ليلتها التي لم ترَ مثلها من قبل.

اتصلت مرات ومرات ولم يجب، وفجأة رد صوت أنثوي يتصنع الرقة.. أبعدت حنان الهاتف عن أذنيها لترى بمن اتصلت لعلها أخطأت.. لتجد اسمه على هاتفها (**حبيبي**) نعم لم تُخطئ!

فأعادت هاتفها لأذنيها من جديد في رعشة تسللت لروحها خوفًا من إحساسها ومنه..

لتسمع الحديث كاملًا، صوت زوجها مع شبه أنثى تتصنع الرقة الساعة الثالثة فجرًا!! فأخذت تسترق السمع في صمت وأغلقت التلفاز وهدأت ابنها وتركت الخط مفتوحًا على أذنيها لترى أين سينتهي!

ليتها لم تسمع شيئًا، وكأن الله أراد أن يؤكد شكوكها، لم يرد الله أن تظل مغفلة مع من تخلص له بحياتها وروحها.. إنه يوسف زوجها.

لم تكن المرة الأولى لخيانته لها؛ لكنها كانت المرة الأخيرة لصفحِها عنه وإكمال حياة مزيفة معه.

مر شريط عمرها معه منذ لقاؤهما الأول أمام عينيها، وكيف تحملت الكثير ووقفت أمام رفض أهلها له بكل حب وتصميم وثقة بشريك عمرها وحُبه لها.. فكان حوارهما ساخنًا، حب وشوق وعتاب منها، وإرضاء منه له..

أحبك.. حروف اعتقدت أنها لن تخرج لسواها؛ فهي زوجته ورفيقة دربه، من وقفت معه بكل شيء.. حتى صار رجلًا كاملًا، أكملت نقصه بِحُبها وحنانها عليه.. وأكمل بحبه لها نقص روحها، ظل بجانبها عمرًا كاملًا وإن قلت أعوامه، كان لها زوجًا وأبًا وأخًا وصديقًا، أمانًا ووطنًا وملجأ حتى وإن كان زائفًا، فهي راضية مكتفية به.

كل حرف كانت تسمعه بمثابة سكين بارد لم يرحمها، شعرت بطعنته لها بكامل جسدها وروحها..

ستون دقيقة ألم تحملتها في صمت، جسد يرتعش، دموع تنهمر بضعف شديد، وخيبة أمل لا يشعر بها أحد..

ظلت تحدث نفسها.. لم تمر أيام على عيد الحب، حيث قضيناه سويًّا.. ألم يقل لي حينها إنني كل حياته وبدوني ظلام؟!

ألم يحدثني عن أنني طوق نجاته ونور قلبه؟!

ظلت على هذا النحو الساعة كاملة إلى أن أغلق الخط معلنًا نهاية الحديث بينهما ونهاية صوت الفتاة المقزز، وصوته الذي تأكدت من نبرته ونهاية حياتهما معًا، تركت حنان هاتفها جانبًا في ذهول وظلت في صمت لحظات جاهدة في محاولة استيعاب ما حدث..

تعجبت كيف لمشاعر عشق أن تتبدل تدريجيًّا لنزيف من غضب يستوطن قلبها الذي أضحى مشوهًا بين يديه، منطفئًا، باهتة ابتسامته.. لتقرر أن برودة وحدتها أرحم من زيف دفئه.

لم يعد ذلك القمر الذي يتجلَى بسمائها كل ليلة ليُضيئها؛ بل أصبح رمادًا ما يزيد عتمتها إلا كحلة وغبارًا تماديا بنظرها دون مبرر، دون حق، دون رحمة، إلى أن جعل القلب الذي ينبض بحبه يزداد منه نفورًا، جاهلًا أن الله لا يحمل نفسًا فوق طاقتها فأنَّى له أن يُحملها؟!

وانتبهت فوجدت ابنها قد استغرق في سُبات عميق.. لتُحدق بملامحه في حسرة وكأنها مُدركة لقرارها بوقف الطعنات التي تتلقاها، لتُعلن تمردها على استسلامها وضعفها، وتغلق صفحة لم تكن مُقدرًا لها أن تفتح من البداية.

❋ ❋ ❋

سيماهم على وجوههم

وفي يوم حر بعد سهر ليلة كاملة من ليالي الصيف المفرهدة قمت الصبح بدري على عيني وبالعافية علشان أروح البنك مع بابا، وصلنا حوالي الساعة 8 ونص.

لقينا طابورين من امتداد البنك للشارع.. كان تالت يوم نحاول فيه نروح، قلنا ما بدهاش بقى، هندخل يعني هندخل، (**استعنا على الشقا بالله**).

بابا وقف مع الرجالة وقال لي روحي مع الستات، كان الطابور أقل شوية، ودخلنا بعد ساعة فرفرنا فيها إحنا الاتنين بعد تصميم إننا ما نرجعش زي امبارح وقبله من شدة الزحام.

أخدنا رقم بعيييييد

وقعدنا في التكييف ريحنا، وتقريبًا نمنا في وسط الزحمة الشديدة.. بقيت حبة أنام وحبة أفتح عيني.. كل اللي كان بيدور في دماغي إن البنك دا عامل زي الشارع القديم، كل الناس فيه بتتجمع.. أحباب بقى أو أعداء بيتقابلوا.. والعينين بتتقابل وبتفضح صاحبها..

قابلت والدة صديقتي الجميلة، سيدة راقية شيك لفتت انتباهي من أول ما دخلت بشياكة لبسها وتناسق الألوان والإكسسوارت والميك أب.. نفسي قالت لي يادي الكسوف، وانتِ صاحية من على السرير كدا على كرسي البنك؟ بقيت بافتكر أنا غسلت وشي ولا إيه! طب البرستيج طيب؟!

المهم قلت يلا مش مهم.. بعدها قابلت مدرس الإعدادي بتاعي، راجل جميل، كان بيحبني قوي، كان دايمًا يقول لي انتِ أروبة، كنت متفوقة ما اعرفش جرا لي إيه..

بعده قابلت جارتي، جاري، ابن عمي، إذ يشاء القدر إن الشعب كله إن ما كانتش اسكندرية كلها شافتني وانا مش غاسلة وشي ونايمة على نفسي على الكرسي في التكييف في مشوار البنك الأليم.. اللهم إن الحاجة الحلوة الوحيدة اللي فيه وأعتقد بالنسبة لناس كتير هيَّ الفلوس اللي بنخرج بيها وبندعي ربنا يا رب ما نتسرقش واحنا مروحين..

لمحتها وانا قاعدة.. حد منور دخل ما قدرتش أشيل عيني من عليها.. صحيت على صوت ظابط الأمن: يا أمي... حضرتك... يا حاجة، يا حاجة. التفتت له بوش بيضحك فقال لها: الشنطة لو سمحتِ.

فتحت له الشنطة، 3 سُوسَت، مع كل سوستة ابتسامة مرسومة على ملامحها، كأنها قمر منور في ليلة اكتماله، وجات قعدت قدامي مباشرة.

ملامح رقيقة كأنها رسمة في برواز، وطيبة بتنطق لوحدها، التجاعيد اللي مالياها ما قدرتش تخبي ولو جزء من جمالها، عينين واسعة لونها أزرق غامق.. شفايف رفيعة متناسقة، حواجب رفيعة مرسومين في وش مدور زي البدر.. بياض شديد مليان بنمش ضافي عليها سحر.

إيدين منورين مليانين نمش، بتترعش شوية، خطوة بطيئة متزنة.. طرحة بيضا قطن بشراشيب، مزودة نور وشها بطريقة عجيبة، وبلوزة زرقا بلون عينيها، وفيها ورد أبيض بلون بشرتها اللي بتشع نور وسحر غريب، أول مرة أشوفه، وجيب سودا وباليرينا..

ما اقدرش أوصفها غير بهانم في العقد الخامس أو السادس من عمرها.. وأكيييد كانت ملكة جمال في صِباها.

فضلت أبص لها وانزل عيني لما تقابلني بعينيها وارجع أبص لها، شفت نفسي فيها لما أكبر.. شفت جدتي الله يرحمها واللي عمري ما شفتها خالص غير في صور قديمة جدًّا متهالكة الملامح، حسيتها هيَّ من أول ما لمحتها، شبهها وشبهي، زينا.. مننا..

كنت حاسة إني نفسي أروح أكلمها وأسلم عليها واقول لها كنت أتمنى تبقي جدتي بجد اللي ما شفتهاش.. ترجمت لي بسرعة في عقلي جملة **(سيماهم على وجوههم)**.

بقيت بابص على كل راجل مسن قاعد، أو ست طيبة مسنة وادعي لهم جوايا، ربنا يدبر حاجتهم وما يحوجهمش لأي بني آدم، قد إيه الناس دي محتاجة لنا بشبابنا وقوتنا اللي أخدناها منهم.. واللي هنبقى زيهم لما ولادنا ياخدوا قوتنا وعمرنا بطيب خاطر.. كل دا طبعًا وبابا نايم جنبي وبيحلم..

بصيت له شوية في صمت وقعدت أدعي له، وبقيت أدعي، يا رب ما يبهدلنيش قدام الناس لو صحيته، وأقدم رجل وأأخر رجل لحد ما اتشجعت وبإيدي بالراحة: يا بابا. وصحي، وطيت على ودنه قلت له بصوت هامس، بص كدا الست دي، تعرفها؟! شبه حد نعرفه.

لقيت عينيه دمعت ورد بسرعة وبجملة واحدة من تلات كلمات:

أمي.. شبه أمي.

❋ ❋ ❋

زمنٌ مضى

ذات شتاء يفتقد لملامحة الدافئة كان الوداع، توارت الشمس فيه خلف السُّحب وبَدت كأنها وراء غُلاف رمادي داكن، فبدا الجو غائمًا يُنذر بهطول المطر.. دقت الساعة العاشرة صباحًا عند هطول أولى دموع السماء الحزينة لتصير سيولًا..

أبطال قصتي ما هم سوى أطفال تُحيطهم براءة تَمنيت أن لا تزول ما حييت.

أبطالها ثلاثتنا ذوو العشرة أعوام.. أنا وأخي التوأم محمود، وصديقنا طه، شببنا منذ طفولتنا على حبنا سويًّا.

لم نتشابه بالطباع فحسب؛ بل الشكل وقسمات الوجه الطفولي والضحكة التي تطل منها على حياة ممتلئة بالأمل، عينان بلون أزرق كمياه البحر الهادئ، وشعر ذهبي بلون الشمس عند شروقها، لتزيد العالم نورًا، بشرة بيضاء بلون قلوبنا تكسو جسمًا نحيلًا.

كل شيء يمكن أن تنساه ذاكرتنا، إلا ذكريات طفولتنا الحالمة ؛ فهي خالدة في أعماق نفوسنا، تتحدى النسيان ومرور الزمن.

لقد كانت طفولتنا طفولة سعيدة، بين أب وأم لن تفيهما بضع كلمات، كانا يحيطاننا برعايتهما وحبهما وكل ما هو جميل، جاهدين أن نصير أفضل منهما بكل حياتنا.

فجعلا من طفولتنا جنة تمناها أي طفل بعمرنا، وكان يشاركنا فيها طفل صغير من أطفال الجيران في مثل عمرنا، ألا وهو طه، كان مرحًا، لا تفارقه ابتسامته، وينجح في رسم ابتسامتنا ويملؤ مجلسنا بهجة وحبورًا.

تلازمنا دائمًا معًا، لا يفرقنا سوى النوم بعد يوم شاق من اللهو واللعب. جمعتنا كرة وشارع بلا جدران نَمَت به سعادتنا.. يملؤه صوت عم أمين البقال تذمرًا عند اصطادم الكرة بمحله الصغير..

لم يكن للفراق معنى أو وجود في عالمنا الصغير.. الذي تُحيطه براءتنا.

أتذكر أيامنا كأنها البارحة، وأعيشها يومًا بعد يوم متناسيًا أنني صرت كهلًا أشيب يطل على حاضره وحيدًا بحنين من ماضيه وأمل مفقود في غده.

كان سهلًا عندي أن أصدق أن الشمس سَتشرق من المغرب من أن أصدق أننا سَنفترق وسَنعلم أن للفراق مذاقًا مرًّا، ووددت أن أستطيع أن أنشب أظافري في عنقه انتقامًا منه لتفرقتنا.

وبالأمس القريب البعيد جلست بالتناوب مع أخي قبالة صاحبي نتشارك لعبة الشطرنج وأخضع ملكه تحت إرادتي كعادتي.

كان منزلنا بالقرب من الميناء المكدس بالسفن العملاقة فنبصرها من خلف نوافذنا.. كأنها قمر يترك مكانه في السماء ليستقر في مياه بحره فيحتضنها.

نمونا مع الزمن ونمت بيننا أواصر المحبة والود إلى أن أضحينا بريعان شبابنا تخرجت من كلية الهندسة والتحقت بوظيفة بشركة خاصة لا بأس بها، وتخرج أخي من كلية الطب ليصبح طبيبًا مجتهدًا مشهورًا محبوبًا من الجميع. أما طه صار قبطانًا بحريًّا يجول في بلاد الله بحكم عمله. يجمعنا الحب في الله مهما تفرقنا، فتجمعنا قلوبنا مرة أخرى.

وصباح يوم تمنيت أن يُصيبني داء الزهايمر كي لا أذكره، ذهبنا لوداع صديقنا طه لعمله كعادتنا. ساعدنا بحمل حقائبه عم أمين البقال،

فكان يصاحبنا كأبناء له وإخوة لابنه الجميل علي، فكان كثير المزاح معنا والتعلق بنا.

وكانت السفينة كما تخيلتها بذاكرتي وقتذاك كذئب صادف صيدًا ثمينًا حتى أطبق بانيابه عليه ليقتلعه منَّا.. وتعانقت أرواحنا وأحضاننا لنودع صديقنا طه، وشعرت بوجع في قلبي جهلت معناه حينها. وقفنا على رصيف الميناء نلوح بأيدينا، سلام الوداع، وكان صديقنا يلوح لنا هو الآخر وهو يقف على ظهر الباخرة الضخمة، ولعله كان يبكي في صمت.

كان هناك أمل ضعيف يراودني، في حكم الاستحالة، لكنه كان يبعث في نفسي عزاء خفيًّا، وصبرًا كامنًا، وكأن السفينة ستقف ليعود طه إلينا من جديد.

لكن سرعان ما ضاع الأمل حيث تحركت السفينة معلنة الأبحار، ثم أخذت تتواري عن أعيننا شيئًا فشيئًا حتى كادت أن تختفي وراء الأفق، وأصبحت كنقطة صغيرة سرعان ما اختفت.

وخفت البصيص وشملتنا حلكة من اليأس شاملة، ونظرت إلى أخي في ألم وشعرت بالدموع ترقرقت في عينيه فاحتضنته في صدري

وبكينا معًا، وانهمر المطر سيولًا علينا، ليلفظ محمود أنفاسه الأخيرة بين ذراعي ويسقط أرضًا مستسلمًا لقضاء ربه..

وإذ بهاتفي يُصدر ضجيجًا حزينًا ليخبروني أن طه توفاه الله وسقط مغشيًّا عليه فور انطلاق باخرته وتواريها عن أنظارِنا..

اجتمعت روحيهما معًا، وتركاني وحيدًا بلحظة واحدة بلا رحمة..

وها أنا أحيا منتظرًا أن ألحق بهما، لنجتمع ثلاثتنا كزمنٍ مضى.

❋ ❋ ❋

العشق القاتل

في ضوء خافت بلون خصلات شعرها الذهبي، جلست ناهد على مقعدها الهزاز وتناولت فنجان قهوتها، ليحتضن أصابعها الباردة ليُطمئنها، واختلط بخاره مع أنفاسِها المضطربة في ليلة شتاء قارسة.. تجلَّى القمر بسمائها بدرًا في مساء هادئ من حي المنتزه الراقي تجاوزت ساعاته منتصف الليل، من غرفة بأحد الفنادق الفاخرة المطلة على البحر مباشرة، حيث يتسللها دفء يطغي على برودتها.

ظَلت ساعات تُحملق لغرفتها الخرساء، بعد أن عُم هدوءًا بعد عاصفة هوجاء.. كأنها تستدرج إِدراكها كي لا يغفو من جديد.

ضحكات تعلو من قلبهما، تنبض بها أرواحهما، هكذا كانت ذكرى أختها الجميلة فيروزة بآخر لقاء لهما معًا.. أخذت ناهد تنصت بشغف لحديثها عمَّن تريد الارتباط به.

كانت فيروزة الأخت الصغرى لها، الفائقة السحر، التي تصغرها بعشرة أعوام، ذات الخمسة والعشرين عامًا.. انتقلت معها بعد وفاة

والدتها وسفر أبيها مع زوجته الجديدة لدولة أوروبية بضع سنين كانت ناهد بمثابة أُم لها ووطن، وعند زواجها أصرت فيروزة على تركها خِشية أن تصبح عازلًا بين العروسين.

وانتقلت للعيش بمفردها مُكتفية بدراستها في حياة بسيطة أبطالها ناهد وزوجها الذي رأت فيه طيف والدها التي تمنت أن يكون عليه.

يومان مرَّا كعامين لَم تَجِب فِيهما فيروزة على جوالها، لم يدرِ عم شكري حارس عقارها أين هي عند سؤال ناهد له!

حيث اعتاد الرجل الطيب على رؤيتها كل صباح عند ذهابها للجامعة وتبادل الحديث معها والدعاء لها كابنته الصغرى.

اختفت الجميلة خافية معها سرها.. قلق انتاب ناهد.. فجنت في البحث عنها دون جدوى.

وصباح يوم غاب عنه ضوء الشمس ولم تغب سيرة فيروزة بين ناهد وزوجها كعادتهما، اقتحمت ناهد بصحبة زوجها مالك وعم شكري حارس العقار منزلها ليجداها جثة هامدة بلا حراك..

لحظات صمت مَرت كأعوام لم تدرِ ناهد كم هي، لتسقط فاقدة وعيها في حضن زوجها ورفيق دربها.

لم يكن مجرد زوج وحبيب لناهد فقط؛ بل كان جنتها في الأرض عشر سنوات، في حين لم تكن ناهد له إلا زوجة صالحة، يجتهد أن يسعدها ليرضي ضميره دون أن ينبض قلبه بُحبِها.

كان ينبض في صمت بعشق الجميلة فيروزة..

ظَل يَتوهم حبها له دون استجابة منها حتى زاد ضيقه وتبرمه كلما زاد رفضها له..

واستحكمت في رأسه فكرة التخلص منها بعدما قصت عليه ناهد من تريد الجميلة الارتباط به، وتملكته أنانيته فأبى أن تكون حبيبته يومًا لرجل غيره.

وأخذ عقله المجنون عشقًا يهذي، لتذهب لربها على أن تذهب لرجلٍ آخر.

عزم مالك أن يضع خطة محبوكة حتى إذا ما نجح في قتلها بدا موتها طبيعيًّا، لا يشم أحد منه رائحة جريمته.

ومضت فترة من الوقت قرر مالك أن يضع فيها فكرته حيز التنفيذ، لم تشك ناهد فيها لحظة به أو بما عزم عليه.

ذهب لفيروزة كعادته للسؤال عنها ولم يجد منها إلا ترحابًا كعادتها بوجه مشرق كالشمس الساطعة في الأفق..

وفي غفلة منها وضع قرصين مخدر بكوب عصيرها، تثاقلت جفون الجميلة وبعد لحظة غطت في نوم عميق ليضع أصابعه حول عنقها ولم يتركها إلا جثة هامدة على فِراشها، ثم عقد إيشاربًا طويلًا خاصًّا بها بعنقها، وربطه بِفراشها ليبدو أنها تخلصت من حياتها، ثم هرول كمن به مَس من الجنون.

ظَل المخادع متماسكًا يواسى زوجته على فقد أختها، وكأن حبه تبرير لزهق روحها، وكلما انفرد بنفسه بكى وما بكاء العين إلا غيثًا يروي النفوس التي يملؤها الحزن.

شهور مرت وعيون فقدت مذاق النوم.. رأت فيها ناهد زوجها قد يَبس يومًا بعد يوم.

ظَلت تستيقظ كل ليلة من نومها على ضجيج صوته وأحاديثه، حيث أصيب بمرض التحدث أثناء نومه.. فتضمه لصدرها كطفل صغير ليهدأ ويغفو بين ذراعيها كل ليلة، شاردة بكلماته حتى الصباح.

ازداد مالك كُرهًا لزوجته، وظل يلومها في طيات نفسه على قتله لحبيبته.. وظن بعقله المريض أن عقابها أن تلقى مصير أختها انتقامًا منها على ما جعلته يقدم عليه.

لم يكن وضعه لحظة أخرى بأمر عسير، فوضع خطته وقرر أن ينفرد بزوجته لينفذ انتقامه بها، حيث صادف قُرب عيد زواجهما.

فبادر بحجز ليلة بأحد فنادق المنتزه الفاخرة المطلة على البحر، احتفالًا بعيد زواجهما السابع.

أكل هذا الوقت وأنت عاشق لفيروزة؟! كيف تجرؤ على حبها؟! كيف تجرؤ على قتلها! هكذا بدأ حديث ناهد لزوجها بكل حزن وقوة لم يتوقعها.

تلعثم مالك وكأنه طفل لا يتذكر نطق حروفه، أحس برأسه تكاد أن تتحطم، وشعر بجفاف في حلقه فمد يده إلى كوب أمامه من الماء تجرعه دفعة واحدة ليطفئ لهب جوفه.

ثم ألقى نفسه على فراشه منهكًا وقال لها بصوت متقطع يكاد أن يخرج من حلقه: **ماذا تقولين؟!**

فأجابت ناهد مسرعة في هدوء.. استيقظت كل ليلة على حديثك **(لم أشأ أن أقتلك يا فيروزة، أنا أحبك.. لم يفرقنا سوى وجود ناهد، هي من جعلتني أقتلك، سأقتلها انتقامًا لكِ ولي، ولم أشأ أن تكوني لغيري.. لم أشأ أن أقتلك يا فيروزة)**.

لم ينطق مالك حرفًا، وشعر بتثاقل في جسده واسترخاء وتسلل النوم إلى جفنه.. وقال بصوت متحشرج: **قد خُدرت!! لكني لم أضع المخدر في العصير ولم أحتسِه!** حيث وصل لأذنه صوت زوجته ناعمًا هادئًا: **مُخدر بالعصير!! كفاك وهمًا يا زوجي الحبيب، ألا يُوضع المخدر إلا في كوب العصير؟! ألا يوضع في الماء مثلاً؟!**

كانت آخر كلمات سمعتها أذن مالك قبل أن يغفو ويذهب عن دنياه في آخر نوم عميق بين وسائده..

ساد صمت وكأنها لحظة انتصار لها.. وبحركة لا إرادية تناولت سكينًا أمامها وطعنته عده طعنات قاتلة غير مبالية بعاقبة فعلتها، ليمتزج بياض فراشه بالأحمر الدموي، في مشهد مهيب راح حبيبها فيه ضحية حبه وجنونه وجنون حبها له.

وأضحى عيد زواجهما عيد انتقام عاشقة لا عاشق.

ابتعد عنها كأنه شمس غاربة تهوي في أفق حياتها للأبد، تاركة روحها في ظلمة كاسحة ما بين القمة والقاع، حائرة عن وجهتها وهدفها.. ما بين عنان السماء وأعماق الأرض، ترى أين ستستقر في النهاية؟

❋ ❋ ❋

هدية في ليلة سَمر..

كان ياما كان، في وقت من زمن كان، أسرة راقية من أب وأم وابن وحيد مدلل، فاسد، كانوا عايشين في حي لوران الراقي بالإسكندرية.. الأب مدير في الجمارك، والأم مديرة في التربية والتعليم.. وبرغم كدا إلا إن الابن (**محمود**) ما كملش تعليمه، وما فلحش في دراسته كمان، زيها زي كل حاجة في حياته.

اكتفى بتعليم متوسط، وبصعوبة ووسايط لحد ما خلص. كان ماشي بسمعة أمه وأبوه فقط، معلق شخصيته باسمهم وشخصهم (**أنا ابن فلان**).

محمود كان ابن عاق، طويل القامة، أبيض البشرة، عريض المنكبين، عضلات وجيم بقى وحركات، يا ريت كانت العضلات وحدها بتعمل راجل.

ما اكتفاش بفشله في دراسته وفشل في حبه حتى لأبوه وأمه، ودايمًا كانت أسوأ معاملة منه ليهم، بعصبية وصوت عالي وإهانة.. ما هموش

دموع أمه عليه وحسرة قلب أبوه، قلبه كان حجر.. طبيعي وهو بعيد عن ربنا ولا يعرف له طريق.

ما كانش يعرف غير صحاب السوء، اللي طبعًا أدنى منه وأقل في كل حاجة، وما بيعملوش حاجة غير إنهم بيسحبوه معاهم ويسحبوا فلوسه ويستنزفوه لطريقهم اللي بقوا بيجهروا بيه كمان. سجاير ماشي، شيشة ما يضرش، حشيش وما له، بنات سوء طبعًا.. نسوا ربنا والناس بمتاع الدنيا الزائف.

وزي أغلب الأسر المصرية للأسف عشان ابننا يتهدي نقوم إيه؟ نجوزه، بدري وبسرعة بنت ناس حلوة وطيبة تهديه وتصلح حاله!

وتم اختيار الضحية، قصدي العروسة، بنت وحيدة زيه، على مستوى عالي من الجمال والخُلق ومن أسرة طيبة، لا عمرها لفت ولا دارت، ومهما شافت ما شافتش زيه.. وزيفوا الحقيقة بغلاف جميل اسمه نفاق وتمت الزيجة. وعدت سنة واتنين وشاء القدر إنهم ما يخلفوش، ودا ما زادش حياتهم إلا فتور وملل وخنقة، ما كانش بينهم توافق، والابن الفاسد ما اتصلحش، (**اللي فيه طبع عمره ما هيتغير**).. وظلمها كتير

وخانها كتير، إهانة وضرب، ولعدم رضى ربنا عليه ورضاه بحياته اتجوز عليها كمان، صممت على الخطوة اللي اترددت فيها كتير وطلقها، بمعنى أصح؛ رماها، ونسي حياته كلها بما فيها هيَّ بالعروسة الجديدة العاشقة القديمة.

توأم جميل ما لوش أي ذنب اتولد في حياته الجديدة، وسنين كتير عدت. نسي فيها إنه ظالم، ونسي إن ربنا ما بينساش دعوة مظلوم، والدنيا دارت والعيال كِبرت، واتعمل فيه زي ما عمل بالظبط.

من قسوة ابنه وفشله ومعاملته القاسية له ولأمه، وعدم حبه وطاعته لهم.. الدنيا لفت وابنه بقى طالح زيه.. طايح في الكل ومالوش في حياته كبير..

فضل الأب تايه في حياته من سيئ لأسوأ، ومن معصية للتانية، نسي إن ربنا ساتره وبيدي له فرص ما اغتنمهاش، بل زاد فجور، خيانة على كدب على إهمال على كله، بدل ما يحتوي أولاده رماهم، وبقى بيشوفهم صدفة إن شافهم.

أنانية طغت في قلبه وروحه وقلب مراته وما عاشوش لحد إلا لنفسهم، دمروا روحين بكل قسوة.

انشغلت الأم في الخروج والصحاب والموضة، والأب انشغل بملذاته ومغامراته وصحاب السوء.. وفي ليل كاحل سواده مقبض.. اتجمعوا صحاب السوء في ليلة بلون سواد أنانية قلوبهم، في شقة واحد منهم.. علشان يسوقه القدر إنه يلاقي بنته الجميلة في انتظاره، كهدية في ليلة سمر.

❋ ❋ ❋

قلب رحيم

أبصرته أول مرة بجوار دار قديمة بجانب منزلي بحي شبرا بالقاهرة، أثناء عودتي من دوامي كعادتي في ليلة مظلمة.. وقد اتخذ من درجه الحجري متكأ ومضجعًا. ممسكًا بيده صرة صغيرة أظن أن بها كل ما يملك من حطام الدنيا.

وراعني من الرجل ذلك الحزن العميق الذي كسا وجهه، فقد كان كهلًا في العقد السادس من عمره، بشعر فضي فوضوي، ونظراته الشاردة كأنها حبيسة روح مبعثرة، كتمثال للحزن ونموذج للجمود الضائع الذي لا يدري أين هو.

بشرة صافية مغطاة بتجاعيد وذقن طويل غير مهذب اختلط الشيب فيه بسواد ليلته ليخفي ملامحه.

فبدا الرجل محطمًا قد سلبه اليوم كل ما وهبه الأمس.. أضناه الفقر والحاجة، بجانبه زجاجة ماء وقطعة من الخبز، مغطاة بجلباب متهتك بني اللون.

أتتساءل من هذا الرجل؟!

التفتُّ على صوت الجار الطيب من نافذة مجاورة الذي لم أكن أدرك أنه يلاحظني وينتبه لنظراتي إلى العجوز الذي لم يجد سوى الشارع لاحتضانه.

وبصوت حزين قال لي: **لعلك تريد أن تعرف هذا الرجل وما قصته.**

فرددتُ: **وما قصته؟**

- كان أبًا جاحدًا على ابنه الوحيد وامرأته، وهو بكامل صحته، وكأنه خُلق بمشاعر من حديد إن وُجدت، الكل يخشاه ويرهب سيرته.. رجلًا بلا قلب، بلا رحمة. لا يعرف لله طريقًا.. ولم يرشد عائلته إليه يومًا.

إلى أن اقتحمه ضيف غير مرحب به، ما زاد الحِمل إلا ثقلًا، وتحولت حياتهما إلى بحر عميق بسواد كاحل. تمنوا التخلص منه يومًا.

قد ابتلاه الله بمرض خبيث يفترس الروح ليتركها بلا هوية، إنه مرض الزهايمر يا بُني..

فلا يشعر دائم الشبع أن هناك شيئًا اسمه الجوع.. ولا يمكن أن يشعر الصحيح المعافى أنه صحيح معافى إلا عندما يمرض. إن النعمة لا يعرفها إلا المحرومين منها.

توفت زوجته وأودعه ابنه في إحدى دور المسنين، ليهاجر إلى بلدٍ أوروبية، وما كان ذلك عليه بعسير، ولمَ لا؟ فهو لا يعرف لله طريقًا كأبيه وليس بقلبه شيء من الرحمة.

وشهور قليلة نشب حريق هائل دمر كل شيء، وكان هذا الكهل الضائع الناجي الوحيد الذي لم يجد من يلجأ إليه سوى زاوية بشارع قديم اتخذ منها موطنًا ومن برودتها دفئًا ومأوى.

وتمكن منه المرض اللعين فأضحى لا يعلم من هو ومن أين جاء أو ذهب.

ينفطر قلبي عند رؤيته، ولولا أني عجوز وحيد أملك فقط قوت يومي لجعلت له بيتي بديلًا لشارعه. لكن ما بيدي حيلة.

أشحت عنه بوجهي بعد أن أتم حديثه كأنما تملكتني خواطر جامحة متعارضة: **أليس حاضره يغفر لماضيه؟!** ثم زفرت زفرة حارة وأطلقت من صدري تنهيدة عميقة وأخذت أحدث ذاتي بصوت خافت يكاد عقلي يسمعه: يُذكرني بأبي.. الرجل الطيب العليل بنفس الداء، الذي استيقظت يومًا ما على فقداني له، وانقطع أملي في العثور عليه.. حماك الله يا أبي إن كنت حيًّا ترزق، ورحمك الله إن استرد وديعته.

ثم استأذنت منه وانصرفت.. وبعد بضعة أيام قابلني الجار الطيب وسألني إن كنت رأيت الكهل المريض فلم يجده في مكانه المعتاد.. فدعوته بمنزلي المجاور المتواضع، وأخذنا نتبادل الحديث وبعد ضيافته وبرهة من الصمت قال لي: **حدثني عن العجوز هل تدري أين ذهب؟**

فأشرت بيدي إلى حجرة مجاورة مغلق بابها، وأجبت في هدوء وإطراق: **إنه هنا، إن فشلت يومًا في العثور على أبي.. فقد وجدته به ولن أفقده مرة ثانية.**

ماضٍ لا يموت

وصباح يوم هادئ احتضنت فيه أشعه الشمس الذهبية مياه النيل الساحرة، تعدت دقات ساعاته الثامنة بساعة كاملة.

جلس الدكتور هشام يستمتع بنسمات الهواء الخفيفة التي تُداعب وجنتيه في دلال بشُرفة منزله الصغير المطل على روح القاهرة المتمثلة في نِيلها الواسع. متأملًا إياه، متمنيًا احتضانه في صمت.. اقتطع شقشقة عصافيره الملونة التي تحلق في سمائه المموجة بألوان الطيف ذكريات بدت كضيفٍ ثقيل حاول جاهدًا مقاومته بلا جدوى، فقرر أن يترك له البيت ليصبح سَيده، أن يترك ذهنه له ليعيش عبق ماضيه رغمًا عنه.

أيعقل أن أكون أنا الدكتور هشام ذو الشأن العظيم، دكتور الصحة النفسية بكلية الطب جامعة القاهرة؟! بعدما كنت مريضًا بذات الداء الذي أعالج منه مرضاي.

حيرة ووجع يكادان يعصفان بكل ما تبقى لديَّ من قدرة على التفكير..

حين تذكرت زوجتي رحمها الله التي هجرتها عروسة وحيدة بعد شهرٍ ما ذاقت من عسله إلا مرًّا، حين غاب ذهني وتأثرت بمرضاي إلى أن أصبحت واحدًا منهم.. غابت شمسي وأصبح قلبي كأيامي باردًا. شخص غريب مريض بمرض نَفسي يجهله. كأنه ذئب كل ما يدور في ذهنه أن يفترس ضحيته.

وتساءلت في حيرة ممزوجة بخوف هل أوصد بحر فقدها لي لعنته فغابت في جوفه، أم سأجدُها عروسًا طافية أعلاه في انتظار قاتلها ليُحيها من جديد، لأجدها عند أرحم الراحمين، وأجد نفسي وحيدًا في غربة بلا وطن.

وَدَّعت بذهني زمنًا مَرَّ ولن يعود بكل تفاصيله.. بما فيه اسمي الذي تَنكرت منه ليدفن مع ماضٍ تمنيت أن أنساه.. واخترت لي اسمًا من جديد يتناسب مع شهرتي كطبيب ناجح في بلد جديد، وتذكرت حاضري الذي أنعم الله به عليَّ، وسجدت له باكيًا في صلاة ضحاي. تبقى حالة واحدة!! هل أُذن لها بالدخول؟! التفت دكتور هشام على صوت ممرضته وترك لقاءه بعصافير شُرفة عيادته.. ليرد متنهدًا وكأنه

فاقد لروحه، يا له من يومٍ شاق، في انتظارها.. لأجد ملاكًا صغيرًا بصحبة والدته.. أنفاس متشنجة ويد نحيلة قابضة بيدٍ كبيرة يختبئ بها، طفل جميل لم يتعدَ العاشرة من عمره، عينان بلون العُشب الأخضر عندما يغسله المطر.. وجه ينطق بطفولة حانية ووحدة قاتلة، شعر ذهبي بلون الشمس.. وأم أنهكتها الأيام في ملامح قوية بائسة، ابتسامة زاخرة بالضعف والجبروت. عينان تستنجدان بي لأجد دواء لداء صغيرها.

بابتسامة تَبعثُ على الاطمئنان استقبلت يوسف ووالدته.. وبعد وقت لا أعرف إن كان قد طال أم قصر.. جلس في محاذاتي صامتًا يكتفي بالنظر لي بنظرات يختلسها، يتفحصني بقلق وترقب وحنين وحب.. أسبغت عليه بكلمات التشجيع لترتد إليه روحه من جديد وليطمئن لي.. وفتحت ذراعي ليرتمي باكيًا بين أحضاني بحنين لوالده المتوفى..

رأيت عينه تلمع بفرح صاخب يغمر شعاعه روحي، أصبح الدكتور هشام طائر نورس، ابني الحر الذي أخفى بجناحيه غمام الأيام فبدد فيه الخوف. طائر طليق حملنا على جناحين إلى الحياة وأطلق جياد الفرح في قلبي وقلب يوسف.. كنا ننتظر كلانا موعد جلسته وموعد زيارته لنا

حتى أدمنا وجوده مثلما أدمن وجودنا. عيناه فيض من الحنان يسكُب ما فيهما بيننا وبين أرواحنا، فيعيد للأيام بهجتها.

اخترق شرنقتي وشرنقة ابني، فتخلى خوفنا لأول مرة القابع بين أسوار حياتنا عنا. هنروح إمتى لبابا هشام؟

على نغمة سؤال الصغير بدا يومي بصباح لم يكن مثل أي صباح؛ صباح يوم أحرقت شمسه الشرسة وجهي وجسدي، وترددت في إخباره بما في أعماقه..

أصر يوسف في طلبه من الدكتور هشام في حضوره معنا حفلة أولياء الأمور بمدرسته، ولم يلق إلا ترحابًا بِحُب من دكتورنا فاصطحبه معه كابن له لا كمريض، انفرد الدكتور هشام بنفسه يُحدثُها:

لم أكن أعرف الموت لأطلبه، ولا أعرف المستحيل لأتمناه، لكن الصغير الذي يعاني توحدًا أصبح لي كل التمني، مذ رأيته دوى صوته الضعيف بكياني الضائع، وتجمد الزمن وأصبحت عاجزًا عن حساب أي تاريخ، تمر الأيام لا فرق بين ليلها وضحاها، أنتظره بشغف ليقبلني ويحتوي حزني الأوحد بإلقاء روحي بحضنه حين يضمني.

أصبح يوسف كل ما يشغل ذهني، وآن لي أن أساعده. وتمنيت أن أنسل إلى أعماقه، فلا تنتزعني عنه أي قوة أن تنتصر قوة خيالي على واقعي الباهت. لا نملك غير أن نحلم حتى لا نضيع في دروب الجنون.

هل جاء الصبي ليغير قدري ويمنحني لحظة سكينة مع الحياة؟! هكذا حَدث نفسه الدكتور هشام.. تعبت من أحزاني التي أُخفِيها، هل أصارح والدته بما في ذهني وقلبي؟ أم سأظلم نفسي وأظلمها أن ارتبط بها حبًّا في الصغير؟! فقلبي ملك من ظلمتها وكنت سببًا في وفاتها قهرًا، أصبَحَت نصف عمري الذي أعيش بنصفه الآخر.

صراع بين ماضٍ داخلي أوفي له يرفض أن يدنو، وحاضر موجِع رغم ضحكته لي، ومستقبل أشعر أن بإمكاني لأول مرة فيه أن أضحك أو أحلم، لهب في قلبي لا ينطفئ، ينتفض بين نبضاته كقطع فحم مشتعلة، تمنيت أن يصبح رمادًا لكنه ما زاد إلا اشتعالًا كل يوم. وبلحظة لم أعلم إن كانت جنونًا أم للعقل منتهاه. قررت الهرب، لم أعد قادرًا على ظُلم أحد بعد الآن.

بابا هشام سرحان في إيه؟! بحروف خافتة نبهني يوسف أثناء زيارته لي في موعد جلستي، إنني في عالم أجهلُ ملامحه وغائب عنه، لأجده في

حضني، لمعت عيناه ببريق احتوى جسدي فانساب الحزن نهرًا ثقيلًا منه. دَفعته بعيدًا عني متأملًا الدموع المسجونة في عينيه، ثم قلت له: انتهى موعد الجلسة يا يوسف، فلتأذنوا لي بالانصراف، طائرتي أوشكت على الإقلاع. نهضت والدة الصغير في تعجب: إلى أين يا دكتور هشام؟! لم أنتبه لها، ثم حملت حقيبتي وابتعدت مسرعًا. أسرعت ورائي تتوسل إليَّ أن أسمح لها بالانفراد بالحديث معي للحظات قبل مغادرتي. فتوقفت ومددت يدي لفتح باب صغير لحجرة مجاورة لحجرة الكشف، في ذهول ممرضتي التي كَلفتُها بمجالسة يوسف لوقت صغير.

لوعة تعتصر قلبي، هل أخبره حقيقته أم أجملها بكذبة فأراه يتساقط مثل أوراق هشة يومًا بعد يوم. رأيته يتفتح بين يديك، أتتركه في منتصف طريق شفاه وتمضي؟! بصوت متحشرج رددت: يعلم الله أنه ليس بإرادتي، لكني لن أقوى على إيذائه بقربي منه.

ردت والدته قاطعة حديثي: أنا لست والدته.. والدته توفاها الله عقب ولادته، فكانت جارتي الجميلة الوحيدة التي فَرت من دُنياها وأهلها خوفًا من ألسنة البشر لها بعد شهرٍ من زواجها.

لا تعلم عنه شيئًا، تركها وترك ابنًا في أحشائِها لم تكن تعلم هي أيضًا عنه شيئًا إلا بعد رحيله عنها، فتركت كل شيء وبدأت حياتها بجانبي لتصبح أختًا لي لم تلدها أمي.

انتظرَته كثيرًا لكنه لم يأتِ كان طبيب أمراض نفسية في مقتبل حياته لكن الله ابتلاه بعلة مرضاه.. ورحل يومًا عنها بلا عودة.. وتوفاه الله، هكذا سمعنا عنه.

كنت أراها أنثى بداخلها طفلة تأبى الحياة، لولا جميلها يوسف الذي ما رأته إلا أيامًا قليلة ثم رحلت عنه هي الأخرى، احتضنتها أمواج بحر موتها لتغيب تاركة لي طفلًا جميلًا أصبح ابنًا لي.

أحق يوسف أن أواجِهَهُ بكل هذا؟ أم أكتم حقيقته بصمت إلى أن يشتد عوده؟ كيف أتصرف؟! أنهت حديثها بسؤالِها الذي فتح ذهولي فلم أنطق ولم أتحرك قيد أنملة سوى بعين دامعة، وكأن الزمن هنا قد توقف ليمر شريط حياتي أمام عيني بلحظة، زمن يَمر فيثقل عمري ويمتص روحي، أيعقل ما يفكر به عقلي؟!

تَقطَّعت أنفاسي وشعرت بضغط على صدري عندما انتهت من حديثها ولقائنا بوعد مني أن أرى ما هو مناسب لهما.

ودَّعتني وانصرفت مع يوسف، تاركة لي لغزًا وحيرة، أغمضت عيني وعجزت عن التفكير، **هل هو أنا؟! هل أنا من تَحَدثت عنه؟!** أحاول أن أتلمس جدارًا أسند عليه حياتي، أصد به إلحاح الخوف المندفع في جسدي، جدارًا أطل منه على زمن أفضل.

ظللت على هذا الحال إلى أن فاتني موعد طائرتي وأنا في عيادتي أفكر.. أجهشت بالبكاء وضاع صوتي مع نداء صوت ممرضتي مرة أخرى، الملفوف بجدية توقظني: **موعد طائرتك يا دكتور**.. فأجبت في هدوء: **ألغيت موعد سفري، لن أحيا إلا في زمني ولأهلي ولابني**. اندفعت رائحة البحر في كياني، وامتلأ عقلي بصخب حياتي وحصار زمني بعينين غائبتين عن الوعي، وعقل ماتت فيه خيوط الضوء وقلب ضعف نبضه، ووجه يوسف كطائر وحيد يلتمس الأمان وسط جدران حياتي المنهارة التي قررت بناءها من جديد من أجله.

يوقظني لتتفتح عينيَّ عليه، ويلقى نفسه بين أحضاني ويشاركني صباحي بشُرفتي وأشعة شمسي الذهبية، بكلمات توقظني وملامح تبتسم: **صباح الخير يا بابا**. لأبدأ يومي بملامحه البريئة وحياتي من جديد..

❋ ❋ ❋

شيطانة منتصف الليل

لو علم الناس الغيب لاختاروا واقعهم وحَمدوا الله عليه.. لكن الإنسان عَجول لا يرضى، دائمًا يطمع في المزيد والمزيد، كلما احتسى مما يطمح ما ارتوى وما ازداد إلا تَعطشًا من بحر أطماعه.

منهمك في جمع ملذاته، ناسيًا إرادة الله عزَّ وجل وأقداره.

هل أصبح إيماننا أسيرًا في حياة جدرانها الأربع من فساد، أم تناسينا أنفسنا وخالقنا، فضعف يقيننا به بكثرة معاصينا؟! تساؤلات عِدة ملأت رأسه، حينما انتبه رَؤوف في فزع لصوت متحشرج يكاد يخرج من جانبه، أمام منزله بِحَيِّه الراقي بأحد شوارع القاهرة الهادئة بمنطقة المهندسين، في ليلة شتوية قارسة البرودة تعدت ساعاتها الثانية عشر صباحًا، عند عودته بعد يوم عمل شاق وطويل.

(اديني كفك أقراهولك)..

التفتَ ليجد سيدة بلغت من العمر أرذله، ملفوفة بالسواد بخلاف بياض عينيها المحددتين بالكحل القاتم شديد السواد بلون كائنات الليل الشرسة، ويدها ممتدة إليه لتأخذ بيده لتقرأ له كفه.

أعلم من الغيب ما لا تعلمه، ألا يريد فضولك أن يعلمه؟!

قالت بصوت بَحَّته مُلفتة ومزعجة..

صمت خَيَّم على رؤوف وكأنه تحت تأثير مخدر قوي، غاب عقله عن واقعه وزوجته وابنه، حيث كانا في انتظاره ليذهب بذهنه مع المرأة العجوز ويمد لها يده في استسلام غير مشروط وصمت تاركًا لها روحه، منتبهًا بفضول قاتل لحديثها، طامع أن يعلم ما لم يعلمه وما يحمله له غَده.

وما إن ترك لها كَفَّه كَورقة بيضاء مفتوحة فوق يديها الثابتة الملفوفة بسواد قفازها، حتى اتسعت مقلتيها في خوف وحزن مُفزع، وبكلمات أشبه بسكرات الموت لمريض يحتضر قالت: ينتظرك غَد ليس بِمُشرق، ستموت زوجتك بعد ميلاد ابنك الثاني وسيموت ولداك عند عقد قرانهما.

ضَحك رؤوف بسخرية وكأنه أفاق من غيبوبة دامت لسنين اختزلها الزمن في دقائق معدودة غير منتبه لحديثِها..

التفت عنها ليأتي ببعض النقود من معطفه ليُعطيها لها فلم يجدها، كأنها تَبخرت بليلة ضبابية لم يجد لها أي أثر.

دَهشة وشرود كأنه بحلم مزعج، استيقظ منه على رنين هاتفه ليجد اسم زوجته، فنهض مسرعًا لها ولبيته يحتمي بجدرانه في ذُعر، كخوف طفل عثر على أُمهِ بعد أن فقدها ليختبئ بها من قُبح عالمه.

لم يكن يعلم أن بانتظاره مفاجأة ما زادته إلا رُعبًا، عكس ما توقعت زوجته حين أخبرته أن رزقًا ثانيًا يحمل اسمه ينبض بأحشائها.

أعوام مرت لم يرَ بها وجه العجوز ثانية، لكنه لم يَكف عن التفكير بحديثها. توفت زوجته بعد إنجابها ابنهما الثاني بأيام قليلة، فزاد هلعه يومًا بعد يوم.

حالة من التَّوجس عَاش بها عمره بأكمله الذي انقضت أيامه كسرعة البرق في السماء. اكتفى بتربية أبنائه وجمع ما يستطيع أن يُجنى من مال لهم جاهلًا ما تخبئ له أيامه.

تنهد رؤوف ومَلأ صدره من هواء فضائه الواسع، كأنما يبحث عن سبيل للحرية التي قيدتها كلمات ابنه الأكبر برغبته في الزواج من فتاة أحَبها، فقد أصبح أبناؤه رجالًا صالحين يفتخر بهم.

مشاعر متضاربة امتزجت فيها فرحته وخوفه وتشتته، ختمها بترقبه لما سيحدث غدًا مستسلمًا لمصيرٍ يجهله.

لم تُفلح محاولاته بإغلاق رياح ذاكرته العاتية في حجب صوت المرأة العجوز وتردد كلماتها في أُذنه.

* * *

اقترب موعد زفاف ابنه، واقتربت نبضات قلبه من الانفجار إلى أن تم عقد القران، وتعالت صيحات الفرح ولمعت الأنوار وانطفأ نور قلبه خوفًا من تحقيق نبوءة شيطانته.

لم يعلم بأي يوم هو، إلا أنه يوم قاتم بلون رهبته، استيقظ فيه على وفاة ابنه وعروسه بمنزلهما اختناقًا بالغاز، ليرحلا في هدوء ويتحقق ما كان يخشاه.

سيول عنيفة من ضعف إرادته وحزنه وضعف يقينه بالله، حالت بينه وبين مباركته على زواج ابنه الأصغر، بعدما توفي ابنه الأكبر بعد عقد قرانه بأيام قليلة.

لم يجد خيارًا أمام إصرار ابنه ومن حوله إلا أن لا يحول بينه وبين سعادته، وأن لا يحطم قلبه وقلب من أَحَبَّ.

وأتى يوم زفاف حبيبه الأصغر، وبقلب يملؤه الحب والخوف والحزن والترقب.

عقد قران لم ينتظر إتمامه ليسقط رؤوف أرضًا فاقدًا وعيه ليفارق حياته وحياة ابنه، تاركًا كل مخاوفه، وتاركًا غُصة بقلوب الجميع.

* * *

صباح الخير يا جدو بصوت تعلو ملامحه ابتسامة بريئة، استيقظ رؤوف من كابوسه المزعج ليحتضن حفيده الوحيد بإحدى ذراعيه وبذراعه الأخرى احتوى ابنه الذي وضع على جبينه قُبلَة قبل أن يَهم بالنهوض من فراشه، ليبدأ معهما يومًا جديدًا بحياته، ليدرك أن إرادة الله أقوى من أي شيطانة بليلة.

❋ ❋ ❋

الفهرس

مقدمة..5

إهداء..7

تنهيدة حنين..8

ملاك الله.. 11

لعبة القدر.. 15

رحمة بنكهة وطن 20

شبح أخي.. 22

طاقة نور.. 26

أحببت جنيًّا... 30

ستون دقيقة ألم 35

سيماهم على وجوههم 39

زمنٌّ مضى 43

العشق القاتل 48

هدية في ليلة سَمر.. 55

قلب رحيم.. 59

ماضٍ لا يموت 63

شيطانة منتصف الليل 71

❋ ❋ ❋